هاكلبري فن كما لم تره

بعد أن فرغت من قراءة رواية مغامرات هاكلبري فن، تنفست الصعداء، يا له من مزيج !! مزيج من المغامرة والإثارة والأحداث المتلاحقة وكثير جدا جدا من المشاعر، مشاعر تمكن (مارك توين) بحرفية وصدق أن ينقلها لكل من يقرأ قصته، فتخاف مع (هاكلبري فن) –بطل الرواية– وتخاف عليه أيضا، تشاركه القلق والفرح، تتألم معه حتى الدموع، وتضحك حتى الدموع كذلك! فجأة تجد نفسك تتعايش مع ذلك الصبي الشريد الذي لم ينل حظا كافيا من التعليم ولا الحنان والدفء، اللهم إلا ما منحته إياه الأرملة التي كفلته، تكره أباه بجنون وتستنكر أفعاله، تحب الأرملة لأنها منحته الحب غير المشروط، تتمنى له النجاة.

تود لو أنك تظهر له لتعينه، تحب مساعدته ل (جيم) العبد الزنجي، تستنكر احتقاره له وتستنكر كذبه وقيامه بالسرقة والغش أحيانا، ولكنك تظل معجبًا بذكائه وفطنته وسرعة بديهته، تقول في نفسك لو كان لذالك الصبي أسرة محبة لتوقع له الجميع مستقبلا باهرًا كان سيناسبه أن يكون بحارًا مغامرا مثلا، ما كان ليقترن اسمه بلقب شريد. تعجب بالصراع الدائر بداخل ذلك الفتى الذي اجتمع به الخير والشر فتراه تارة خَيِّر أمين يحب مساعدة الآخرين، ولا يخون صديقه، ويود لو يمد يده بالخير لكل البشر، وتارة أخرى تجد طبيعة الشر ونتاج التربية السيئة تظهر جلية فتراه يسرق ويكذب ويعود ليؤنب ضميره في صراع داخلي رهيب يدور دائما بداخله بين الفضيلة والرذيلة بين الخير والشر، فالرذيلة التي نشأ عليها كشيء عادى غير مجرم تقاتل بشدة الفضيلة التي زرعتها بداخله الأرملة التي آوته في بيتها وأهل بلدته الذين تقبلوه معهم عضوًا صالحًا في مجتمعهم، فتجده يذنب ويؤنب نفسه ويلومها، يقوم بالصواب من وجهة نظره ويفكر ألف مرة بأقل خسائر وأذى يمكن أن يتسبب فيهم، ولكن لو وقعت تلك الخسائر فبعض تأنيب الضمير يفي بالغرض دائما! ولكنك لا تقدر على أن تلوم فتى لم يجد من يُنشئه على الفضيلة، ويحسن تربيته، لذا تلتمس له ألف عذر وتستكمل رحلتك معه وكلك رضا عنه، ولا ينقص تعاطفك معه شعرة بل يزداد.

عندما انتهيت من تأثري بالرواية، لم أنس أن أخبر كل من أعرف كم هي رواية شيقة وممتعة وأخذت أسرد ملخص الأحداث مرة تلو الأخرى، فوجئت بنفسي أتوقف لأتساءل كيف لم ألاحظ هذا من قبل؟ كيف لم نلاحظه جميعا؟ كيف لم تلاحظه أنت ؟؟ (هاك) حقا بائس، وُلِدَ شريدًا لأبٍ سكير، فالتجأ للشارع، وصار شريدًا يستحق الشفقة، ولكن الحظ لعب معه دورًا كبيرًا، فلقد حصل على ثروة وصار ثريا، ووجد في القاضي (تاتشر) من يحميه ويحمي ثروته من جشع أبيه وإهماله، ووجد في الأرملة الحانية من تمنحه الحب والعطف والعلم، ومع كل ذلك بالطبع وجد أمامه الفرصة في الحلم بحياة جديدة

مختلفة ممتلئة بالأمل و الأحلام، كل ذلك رائع، والآن انظر حولك جيدا وتأمل و أخبرني كم (هاكلبري فن) ترى؟؟؟

هناك واحد في محطة القطار يبيع المناديل، وآخر بالشارع الخلفي يتسول، والكثيرون تحت ذلك الكوبري يعانون من قسوة الحياة التي لا ترحم أطفالا مثل هؤلاء، هل رأيتهم؟ هل رأيت في وجههم البائسة وجه (هاكلبري فن)، أعتقد أننا جميعا رأيناه، فالأمر لا يختلف كثيرًا هؤلاء عانوا مما عاناه، وربما أكثر، وهربوا للشارع ينجون بأنفسهم من قسوة أهل لا ترحم، ولا يرغبون فيهم أصلا، هل تعاطفت معهم مثل ما تعاطفت مع (هاك) ؟؟؟ أؤكد لك أنهم يوميًا يقومون بكثير من المغامرات ليهربوا من مطاردات الشرطة والناس الذين لا يكفون أيديهم عنهم بسبب أو بدون سبب ! الناس الذين هم أنا وأنت وغيرنا لم نلتمس لهم الأعذار عندما تسببوا في بعض الأذى، لم نقل ظروفهم كانت صعبة أو نشأتهم غير سليمة، لم نر أنفسنا مذنبين بتقصيرنا في حقوقهم ..... بتقصيرنا في إنقاذهم، بل أصبحنا جزءًا من معاناتهم أيضا، ببساطة نحن لم نرحمهم.

مغامراتهم تلك روتين يومي، ولكن ربما كانت له عواقب أخطر مما تتخيل وأخطر مما يحتمله طفل، مغامرات لا تختلف كثيرا في مدى تشويقها وإثارتها عن مغامرات (هاك)، ولكن الفرق أن هاك كان كان لديه نهر يبحر فيه وأناس يساعدونه أما هؤلاء الذين يملئون الشوارع فهم لا يجدون أحدا يساعدهم، هل تعلم لماذا؟؟؟ لأننا جميعا نرفض ببساطة أن نساعدهم، نرفض أن نمنحهم الأمل، نرفض أن نمنحهم الحلم الصغير الذي منحه أهل بلده (هاك) له .

كم واحد منا عندما يرى (هاك) على رصيف أو في محطة قطار أو في أي مكان آخر يهرع لطلب المساعدة له من إحدى الجهات المختصة؟ كم واحد منا يهتم لنجدة (هاك) الصغير البائس؟ كم واحد منا تعاطف معه حقا وقرر مساعدته ؟؟؟ ألا نستطيع أن نتعاطف مع هؤلاء الأطفال كما تعاطفنا مع (هاك)؟ أن نحلم لهم بمستقبل أفضل كما حلمنا ل(هاك)؟ هنا بمصرنا يوجد الآلاف من (هاك) بل هناك من هم أسؤ حالا منه .

أرجوكم !! وأرجو نفسي!! فلنحاول أن نمنح هؤلاء الأطفال الفرصة، وألا نبخل عليهم من الآن بحلم صغير، نحاول أن نرحمهم ونعتبرهم أطفالا ككل الأطفال الآخرين، لهم أحلامهم وحقوقهم، وبمنحهم تلك الفرصة في الحياة سنمنح نحن أيضا أنفسنا ومجتمعنا فرصة كي نتخلص من مجرم مستقبلي متوقع.

فقط فلنحاول أن ننقذ (هاك)، فهو في حاجة لمساعدتنا .

ريهام إبراهيم